امرؤ القيس

هو حندج بن حجر، الحندج: الرملة الطيبة تنبت نباتًا حسنًا، وليس في العرب حُجْر — بضم الحاء — غير هذا، ومعنى امرئ القيس: رجل الشدة، والمسمَّون بهذا الاسم في العرب جماعة ذكر منهم السيوطي ستة عشر في كتابه المزهر، ومؤرخو الروم يذكرونه في كتبهم باسم قيس.

يُكنَّى أبا الحارث، وأبا وهب، ويلقَّب بالملك الضلِّيل؛ وذي القروح، كان أبوه وأعمامه ملوكًا على قبائل العرب، وكانت لأبيه على بني أسد إتاوة في كل سنة، فغبروا على ذلك دهرا، ثم إنه بعث إليهم جابيه الذي كان يُجبيبهم فمنعوه ذلك، وحُجر يومئذ بتهامة، وضربوا رسله وضرجوهم ضرجًا شديدًا قبيحًا؛ فسار إليهم وأخذ سراتهم فجعل يقتلهم بالعصا، فسُمُّوا عبيد العصا، وآلى أن لا يساكنهم في بلد أبدًا، وحبس منهم عمرو بن مسعود، وكان سيدًا؛ وعبيد بن الأبرص الشاعر، ثم إن عبيدًا استعطفه بأبيات منها:

برمت بنو أسد كما ... برمت بيضتها الحمامه
جعلت لها عودين من ... نَشم وآخر من ثمامه
إما تركت تركت عفوًا ... أو قتلت فلا ملامه
أنت المليك عليهم ... وهم العبيد إلى القيامه

فرق لهم حجر وبعث في أثرهم، فأقبلوا، حتى إذا كانوا على مسيرة يوم من تهامة، تكهن كاهنهم وهو عوف بن ربيعة يحضهم على قتله، فركبوا كل صعب وذلول، فما أشرق لهم النهار حتى أتوا على عسكر حجر، فهجموا على قبته وخيَّم عليه حجَّابه ليمنعوه ويجيروه، فأقبل عليهم علباء بن الحارث الكاهلي، وكان حجر قد قتل أباه،

فطعنه من خللهم، فأصاب نساه فقتله، وقيل غير ذلك، وأنهم أخذوه أسيرًا في حرب بينهم وبينه، فوثب عليه ابن أخت علباء فطعنه ولم يجهز عليه، فأوصى ودفع كتابه إلى رجل وأمره أن ينطلق إلى أولاده ويستقرئهم واحدًا واحدًا حتى يأتي امرؤ القيس، وكان أصغرهم، فأيهم لم يجزع دفع إليه سلاحه وخيله ووصيته، وكان بيَّن فيها من قتله وكيف كان خبره، فانطلق الرجل بوصيته إلى نافع ابنه، فأخذ التراب فوضعه على رأسه، ثم استقرأهم واحدًا واحدًا، فكلهم فعل ذلك، حتى أتى امرؤ القيس فوجده مع نديم له يشرب الخمر ويلاعبه بالنرد، فقال له: قُتل حجر! فلم يلتفت إلى قوله وأمسك نديمه، فقال له امرؤ القيس: اضرب، فضرب، حتى إذا فرغ قال: ما كنت لأفسد عليك دستك! ثم سأل الرسول عن أمر أبيه كله، فأخبره، فقال: «الخمر عليَّ والنساءُ حرام حتى أقتل من بني أسد مائة وأجزَّ نواصي مائة!»

وفي خبر آخر أن حجرًا كان طَرَد امرأ القيس وآلى أن لا يقيم معه، أنفةً من قوله الشعر، وكانت الملوك تأنف من ذلك، فكان يسير في أحياء العرب ومعه أخلاط من شُذّاذ العرب من طيء وكلب وبكر بن وائل فإذا صادف غديرًا أو روضة أو موضع صيد أقام فذبح لمن معه في كل يوم وخرج إلى الصيد فتصيّد ثم عاد فأكل وأكلوا معه وشرب الخمر وسقاهم وغنته قيانه. ولا يزال كذلك حتى ينفد ماء ذلك الغدير، ثم ينتقل عنه إلى غيره، فأتاه خبر أبيه ومقتله وهو بدمُّون من أرض اليمن فقال: ضيَّعني صغيرًا وحمَّلني دمه كبيرًا، لا صحو اليوم ولا سكر غدًا، اليوم خمر وغدًا أمر! ثم شرب سبعًا، فلما صحا آلى أن لا يأكل لحمًا، ولا يشرب خمرًا، ولا يدّهن، ولا يصيب امرأة، ولا يغسل رأسه حتى يدرك ثأره، وفي الأغاني رواية أخرى عن سيبويه عن الخليل بن أحمد.[1] ثم إنه نهد إلى بني أسد فقاتلهم، وكان أدركهم ظهرًا وقد تقطعت خيله وقطع أعناقهم العطش، فكثرت الجرحى والقتلى، وحجز الليل بينهم وهربت بنو أسد، فلما أصبحت بكر وتغلب — وهم الذين كانوا معه — أبوا أن يتبعوهم وقالوا له: لقد أصبت ثأرك، قال: والله ما فعلت ولا أصبت من بني كاهل ولا من غيرهم من بني أسد أحدًا. قالوا: بلى، ولكنك رجل مشئوم، وانصرفوا عنه، فمضى هاربًا لوجهه، حتى أمده مرثد الخير بن ذي جدن الحميري، وتبعه شذّاذ من العرب، واستأجر رجالًا من القبائل ثم خرج فظفر ببني أسد، وألح المنذر في طلب امرئ القيس ووجه إليه الجيوش فتفرق من كان معه ونجا في عصبته، فكان ينزل على بعض العرب ويرحل حتى قدم على السموءل فعرف له حقه، فكان عنده ما شاء الله، ثم إنه طلب إليه أن يكتب له إلى الحارث بن

أبي شمر الغساني بالشام ليوصله إلى قيصر، فاستنجد له رجلًا لما انتهى إلى قيصر — ذكر مؤرخو الروم أنه القيصر يوستينيانس، وقال بعضهم: إن امرأ القيس قدم عليه في القسطنطينية فقلده إمرة فلسطين، إلا أنه لم يسعَ في إصلاح أمره وإعادة ملكه، فضجر وقفل راجعًا، ثم أصابه مرض كالجدري في طريقه كان سبب موته — قبله وأكرمه وضم إليه جيشًا كثيفًا فيهم جماعة من أبناء الملوك، فلما فصل من عنده وشى به الطماح، وهو رجل من بني أسد كان امرؤ القيس قد قتل أخًا له[٢] …

ثم دفن في سفح جبل يقال له عسيب ببلدة تدعى أنقرة، وقيل: إن ذلك سنة ٥٣٨ للميلاد، أي سنة ٨٤ قبل الهجرة، وقيل: سنة ٥٦٥، ووفيات الجاهلية لا يعتمد فيها على نصوص التاريخ إلا الذين تكون أدمغتهم مجلداتٍ من التاريخ القديم …

طويلة امرئ القيس

ذلك نبذ من تاريخ أمير الشعراء بسطنا منه بعض ما يكشف لك وجه نشأته، لتعرف الأخلاق التي كان لا بد لشعره أن يظهر بها مظهر المتميز والمتخصص، ثم نحن نسوق إليك طرفًا من الحديث عن طويلته، ثم نقذف بجملة الكلام عن شعره في فصل انتقادي؛ لأن امرأ القيس ليس بالشاعر الذي يقال فيه وُلد ومات، فيترجم بألفاظ لا تفوت حتى تموت، ولكنه الرجل الذي افتتح به ديوان التاريخ الأدبي، وما زال فيه كأنه قطعة من الزمن، لا يغيره الموت ولا يغيبه الكفن!

كان من حديث تلك القصيدة أن امرأ القيس كان مولعًا ببنت عم له يقال لها فاطمة، وأنه طلبها زمانًا فلم يصل إليها، حتى كان يوم الغدير … حين مرت به فتيات وفيهن ابنة عمه يردن الغدير ليبتردن، فتبعهن مختفيًا، فلما تجردن ودخلن الغدير وثب على ثيابهن فأخذها وقعد عليها، وقال: والله لا أعطي واحدة منكن ثوبها حتى تخرج كما هي فتأخذه بيدها. فأبين ذلك عليه، حتى ارتفع النهار، فلما خشين فوات الوقت خرجت إحداهن فوضع لها ثيابها ناحية فلبستها … ثم تتابعن على ذلك حتى فضحهن جميعًا، وذلك العهر الذي ليس بعده خُلق ذميم ولا عهد أثيم، ثم حملن متاع راحلته بعد أن نحرها لهن، وحملته ابنة عمه على غارب[٣] بعيرها، فلما راح إلى أهله نفث الخبيث على لسانه، فقال هذه القصيدة وقص فيها ما كان وجعلها حديثًا باقيًا على الدهر.

وقد قابلنا بين أربع نسخ منها بروايات مختلفة، فما وجدنا نسخة تساوي الأخرى في عدد أبياتها، فهي في الجمهرة سبعون بيتًا، وفي الديوان الذي شرحه الوزير أبو بكر

عاصم بن أيوب ٧٧ بيتًا، وهو ينقل في مواضع من شرحه عن ابن النحاس، فلعله قابل على نسخته، وفي شرح الزوزني ٧٩، وفي نسخة أخرى من ديوانه ٧٥ بيتًا، وهذه النسخ تختلف مع ذلك في كثير من الأبيات تقديمًا وتأخيرًا، وفي رواية بعض الألفاظ، بحيث لا تجتمع اثنتان منها على صورة واحدة.

أما القصيدة فقد وقف فيها واستوقف، وبكى واستبكى، وذكر الديار والآثار، ثم استشعر العزاء وتجلد، ثم التاع وتنهد، ثم كأنه عفا وتجدد، وذكر يوم الغدير، ووصف عقر ناقته للعذارى، وتبذُّله لمن تبذَّلَ الجآذر، وارتماءهن بلحمها وشحمها، ثم ألمَّ بأطراف العفاف من ابنة عمه، وتعهَّر في ذلك حتى كأن الكلام لا يمر بقلبه بل يخلقه لسانُه خلقًا، إلا في أبيات قليلة، ووصف الجمال وصفًا ظاهرًا يبلغ شهوة النظر، ثم وصف طول الليل وخرج من الفخر إلى صفة الخيل، واستتبع ذلك بالصيد والقنص والطعام، ثم رفع عينيه إلى البرق والسحاب، وخفضها إلى الجبل فزمله من المطر في ثياب أغمضها وسكت كما يسكت على خير جواب.

المختار من ذلك كله قوله:

أفاطم مهلًا بعض هذا التدلل	وإن كنتِ قد أزمعت صرمي فأجملي
أغرَّك مني أن حبك قاتلي	وأنك مهما تأمري القلب يفعل
وما ذرفت عيناكِ إلا لتضربي	بسهمَيك في أعشارِ قلب مُقتَّل
تصدُّ وتبدي عن أسيل وتتقي	بناظرة من وحش وجرة مُطْفِلِ
وليل كموج البحر أرخى سدوله	عليَّ بأنواع الهموم ليبتلي
فقلت له لما تمطَّى بصلبه	وأردف أعجازًا وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي	بصبْحٍ؛ وما الإصباح منك بأمثل
وقد أغتدى والطير في وكناتها	بمنجردٍ[٤] قيد الأوابد هيكل
مكرٍّ مفرٍّ مقبلٍ مدبرٍ معًا	كجلمود صخرٍ حطَّه السيل من علِ
له أيطَلا ظبيٍ وساقا نعامةٍ	وإخاءٌ سرحانٍ وتقريب تَتْفل

شاعرية امرئ القيس وأسباب شهرته

كان امرؤ القيس يماني النسب ولكنه كان نزاريَّ الدار والمنشأ، فإن الديار التي وصفها في شعره كلها ديار بني أسد، ومن ثم كانت له الفصاحة، وقد رأيت أن أباه وأعمامه كانوا ملوكًا، ولملكهم قصة رواها صاحب الأغاني، فلم يألفوا ما ألفته العرب من خشونة العيش وجفاء البداوة، بل كان أبوه حين يرتحل يقدم بعض ثقله أمامه ويهيِّئ نُزُله، ثم يجيء وقد هُيِّئ له من ذلك ما يعجبه، فضُربت القباب، واجتمعت القيان، فينزل، ويقدم مثل ذلك إلى ما بين يديه من المنازل.[٥]

فلا جرم كان ميراث امرئ القيس منه هذا الكبرياء التي تمسح شعره، وتلك النَّعمة التي يرف بها رفيفًا، وقد كان المهلهل الشاعر خاله، فنزع إليه بالعِرْق، واجتمع له الشعر والنعمة والكبرياء، على فراغ وشباب، فأفسدته، فشب خليعًا ماجنًا يتعهَّر في شعره، ولم يطرده أبوه أنفةً من الشعر؛ لأن الملوك كانت تأنف منه كما يُروى، ولكن حياءً مما فيه؛ إذا كان شعره قد تغالبت عليه الشهوات حتى كأنه صورة قلبه ثم كانت العرب تروي ذلك منسوبًا إلى ابن ملك من ملوكها، وقد كان أبوه أراد أن يشغله عن الشعر فجعله في رعاء إبله حتى يكون في أتعب عمل، فلما كان الليل بات يدور إلى متحدثه حيث كان يتحدث، فقال أبوه: ما شغلتُه بشيء، ثم أرسله في خيله، فكذلك، ثم جعله في الضأن، فمكث يومه فيها، حتى إذا أمسى أراحها، فلما بلغت المراح دنا أبوه يسمع فإذا هو يقول: أخزاها الله وقد أخزاها، من باعها خيرٌ ممن اشتراها! ثم سقط ليلته لا يتحرك، فلما أصبح قال أبوه: اخرج بها، فمضى حتى بَعِدَ عن الحي وأشرف على الوادي، فحثا في وجهها التراب فارتدت. فخرج مراغمًا لأبيه، فكان يسير في العرب يستتبع صعاليكهم وذؤبانهم، ويطلب الصيد والغزل وما إلى ذلك فلم يبقَ في شعره فضلٌ لشرف النفس والعفة والحفاظ، ولولا تصعلكه ومخالطته الرعاء لما جنح في التشبيه إلى مساويك الإسحل،[٦] وحب الفلفل، ونقف الحنظل، وغيرها مما هو في شعره، ولما جاء من ذلك بالساقط والسفساف، وقد عابه عليه المتأخرون وما أنصفوه؛ لأنه لا يكون كابن المعتز الذي إليه انتهى التشبيه في صناعة الشعر، فهو يصف ماعون بيته إذ يقول في الهلال:

فانظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولةٌ من عنبر

فانتقاد الشاعر من هذه الجهة خطأ بيِّن؛ لأن ذلك سبب طبيعي لا قبل للانتقاد به وهو أشبه شيء بعيب الطويل لطوله، والقصير لقصره، والحبل لنسعته، ونحو ذلك، مع أن في تلك مناسبات أخرى تستدعي الإعجاب وتُعد في محاسن الخلق.

ولا يذهبنَّ عنك أن الذين ينتقدون امرأ القيس وغيره بما هو من خصائص الجاهلية، إنما نشأ عندهم ذلك بعد مقابلته بنعمة الحضارة وترف العمران، ولو كانوا في الجاهلية لكانوا أجهل منه، ولكن في شعر كل شاعر ما يمكن أن ينتقد في كل زمن، وذلك مما يكون سبيله سبيل المعاني الطبيعية، ولا يتفاوت في الناس إلا بمميزات أخرى ترجع إلى النشأة وسلامة الذوق وخلوص الفطرة ونحوها من الصفات التي هي تأويل معنى التفاوت.

ومَن تدبَّر ما نقلوه من شعر امرئ القيس يخيَّل له أول وهلة أن هذه الشهرة التي رُزقها ليست على مقدار شعره، ولا هي في وزن براعته، ولكنها جاءته من ذكره في الحديث الشريف،[٧] وما زيَّن به الرواة أخباره وشعره حتى كأنما عوضه الدهر من ملك النسب الأدب، ولكن ذلك إنما يعتريه إذا قرأ بعض ما نسب إليه لا جميعه؛ لأن في شعره منحولًا كثيرًا، وبعضه يلائم ديباجته فيكاد يلتحم به حتى لا يميزه إلا دقيق النظر، ولا برهان لدينا على النفي والإثبات في شعر مثل امرئ القيس ومنزلته ما هي، وليس من شاعر أو راوية إلا وقد أحب أن يكون له في كلامه لفظ أو معنى، ولذلك تعاوروا ألفاظه بالتغيير والتبديل، وأدخلوا في شعره ما ليس منه، وقد نص بعضهم على أنه لم يصح له إلا نيف وعشرون شعرًا بين طويل وقطعة[٨] ولذا نفى الأصمعي الأبيات المروية التي يقول فيها:

ألا إلا تكن إبل فَمِعْزَى كأن قرون جِلَّتِها العِصيُّ

وقال: إن امرأ القيس لا يقول مثل هذا، وأحسبه للحطيئة. فما استطاع أن يستدل على ذلك إلا بقوله فيها:

فتوسع أهلها أَقِطًا وسَمْنًا وحسبُك من غِنى شِبَع وريُّ

لأن مثل هذا لا يقوله من يذكر عن نفسه أنه لا يقتصر إلا على الحصول على الملك.[٩] وإنما يناسب مثل الحطيئة لما في شعره من الجشع والضراعة.

وقد بالغوا في الحمل عليه حتى كأنه دابة الشعر، فنسبوا له سخف القول وساقط الكلام وما يجري مجرى الهذيان، ورأيت في بعض نسخ ديوانه قصيدة لامية أشبه شيء بالجلجوتية وشعر الطلاسم، منها:

فكم كم وكم كم ثم كم كم وكم وكم قطعت الفيافي والمهامه لم أملّ
وكاف وكفكاف وكفى بكفها وكاف كفوف الودق من كفِّها انهمل

وهذا المغفل الذي نحله هذه القصيدة جرى في بعضها على قياس قوله في القصيدة التي تُروى له:[١٠]

وسنٌّ كسُنَّيْقٍ[١١] سناءً وسِنَّمٍ ذَعَرْتُ بِمِدْلاج الهجير نَهوض

ولعل هذه «الكمكمة» من قول محمد بن مناذر البصيري في معنى التكثير.[١٢] غير أن الناقد البصير يستطيع أن يتبين أسلوب امرئ القيس من قراءة قصيدتين أو ثلاث مما صح له، فيستخلص منها صفات شعره التي ميزته بالتقديم وجعلته أمير الشعراء وصاحب لوائهم؛ إذ كان أحسنهم نادرة، وأسبقهم بادرة، وقبل أن نأتي على شيء من ذلك نذكر نشأته الشعرية وما استخلصناه من الأسباب الطبيعية في شهرته:

كان امرئ القيس يروي شعر أبو دؤاد الإيادي يتوكأ عليه[١٣] وهو فحل قديم كانت أحد نُعَّات الخيل المجيدين. قال الأصمعي: هم ثلاثة أبو دؤاد في الجاهلية، وطفيل، والجعدي. قال: والعرب لا تروي شعر أبي دؤاد وعدي بن زيد، وذلك أن ألفاظهما ليست بنجدية.[١٤]

فلو أن امرأ القيس لم يكن من أهل نجد لكانوا قد أهملوا رواية شعره ثم هو كان يعرف أن امرأ القيس بن حذام يبكي في شعره الطلول، فأخذ ذلك عنه كما أخذ صفة الخيل عن أبي دؤاد، وتراه يحاول أن يلحقه في إجادة نعتها والشهرة بذلك؛ حتى لا يخلو أكثر شعره من هذا الوصف.

وقد كان يعاصره من الشعراء والمعروفين: علقمة بن عبدة، وعبيد بن الأبرص، والشنفرى، وأبو دؤاد، وسلامة بن جندل، والمثقِّب العبدي، والبراق بن روحان، وتأبط شرًّا، والتوءم اليشكري، وكان من حشم أبيه شاعر عمرو بن قصبة، وهو الذي ذكره في قصيدته التي قالها حين توجه إلى قيصر، وذلك في قوله:

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه　　وأيـقـن أنَّـا لاحـقـان بـقـصـيـرا

وكل هؤلاء لم يقع للرواة من شعرهم مقدار ما وقع في أيديهم لامرئ القيس، فكان ذلك سببًا من أسباب تميُّزه وانفراده.

وثم سبب آخر، وهو أن الذي في يد العلماء من أهل الغريب والعربية وعلماء البيان لا يجتمع منه لشاعر واحد جاهلي ما اجتمع لامرئ القيس، وهو عندهم طبقة متميزة لفصاحته وقدمه، فشعره أشبه شيء بأقدم كتاب في اللغة عند من يظفر به من المتأخرين، وكأنما كان بعضهم يجلُّه عن الانتقاد في ألفاظه، فكل ما استعمله فصيح من حيثما تلقفه وكيفما جاء به، وإن كان ذلك لا شك في صحته دون فصاحته، فإن أهل النظر من علماء البصرة يقولون في تأويل بيته:

لها متنتان خَظَاتا كما　　أكب على ساعدَيْه النِمر

إنما لما جاور في طيء علق من لغتهم، وهم يقلبون الياء ألفًا، يقولون في رضينا: رَضَانَا، وكذلك خظاتا أصله خظيتا، فقلب الياء ألفًا، وهي لغة لم يلتزمها الشاعر، ولا وجه لها إلا أن يكون ميزان لسانه قد تعطل في هذه الكلمة كما تعطل في غيرها، فانحدرت منه ثقيلة غثة باردة، والعجيب أن علماء المعاني والنحو والعروض انتقدوه جميعًا وأخذوا عليه أشياء كثيرة، ولكن مات الانتقاد وبقيت الألفاظ حية، حتى إن أكثر ما قالوه لا يُعرف اليوم ولم يُورِد منه شُرَّاح ديوانه إلا القليل، ولعلهم فعلوا ذلك ليتكافأ الانتقاد مع شهرة الرجل، وهؤلاء أصحاب البيان ما زالوا يطأطئون من الغدائر المستشزرات في كلامه ويضربونها مثلًا في التنافر والثقل، ولكن (مستشزرات) هذه كانت قد رسخت قبلهم حتى لم يستطيعوا أن يحدروها عن منزلتها من الشهرة، وذلك من عجائب امرئ القيس، فإن له ألفاظًا وإن كانت أحجارًا، إلا أنها ثابتة من شهرته في جبل.

والعلماء بالشعر يقولون إن امرأ القيس لم يتقدم الشعراء لأنه قال ما لم يقولوا، ولكنه سبق إلى أشياء فاستحسنها الشعراء واتبعوا فيها؛ لأن أول من لطف المعاني، ومن استوقف على الطلول، ووصف النساء بالظباء والمها والبَيْض، وشبَّه الخيل بالعقبان والعصيَّ، وفرق بين النسيب وما سواه من القصيدة، وقرب مآخذ الكلام، فقيَّد الأوابد، وأجاد الاستعارة والتشبيه، وقلما يخلو كتاب في الأدب من هذه الكلمة، وهي مع ذلك مقبولة كأنها ناموس من نواميس الطبيعة في شهرة هذا الشاعر، على أنها — كما ترى — لم تعزَّز ببرهان، ولم يمسكها دليل، فليس ما يمنعنا أن نمسها بالمحك فنخلص إلى حقيقتها.

أما أنه أول من لطف المعاني واستوقف على الطلول إلخ، فلا يكون دليله إلا تتبع كلام العرب ممن كانوا قبله، وإدارة الآذان في هواء الجزيرة من أكنافه، وهو شيء لا يصدَّق مدعيه كائنًا من كان؛ لأن العرب أنفسهم أهملوا رواية كلام أبي دؤاد كما ذكر الأصمعي، وسبيله سبيل غيره، فضلًا عمن أهملهم الزمن وجُلِّدت صدورهم التي هي دواوين أشعارهم بصفحات من الكفن، وانظر ما معنى قول ذلك القائل: «وإنه أول من فرق بين النسيب وما سواه من القصيدة» فإن هي إلا كلمة مولَّد قصير النظر في مطارح الكلام، كأن شعراء العرب كلهم كانوا على سنَّة المولدين من افتتاح القصيدة بالنسيب ثم التخلص بعد ذلك إلى ما يأخذون فيه من المعاني، وهو رأي لم يقل به أحد، ولا يزال في القصائد المروية قبل امرئ القيس بقية من القوة على تكذيبه.

وأما أن هذا الشاعر أول من قرَّب مآخذ الكلام، فقيد الأوابد، وأجاد الاستعارة والتشبيه، فهو الصحيح، ولكن لا على أنه أول من ابتدأ ذلك، بل على أنه أول من اشتهر به وابتدع فيه، وجملة ما حفظ له منه أشياء معدودة، غير أنها لو توزَّعها شعراء الجاهلية لزانتهم جميعًا.

بقي سبب آخر من أسباب شهرة امرئ القيس في العرب وبقاء شعره على ألسنتهم وهو أنهم يجدون في بعض كلامه رقَّة المنادمة وطرب الخمر وفتور الغزل وغير ذلك مما هو من حظ القلب، ثم هم يرونه إذا أخذ في غير هذه المعاني يطبع ألفاظه على قالبها من الاستعارة والتشبيه، فإذا قابلوا ذلك بخشونة غيره وانصرافه إلى أوصاف البداوة، وجدوا في شعره كالظل الذي يفيء، والماء الذي يجري، والحسن الذي يتميَّح، والنسيم الذي يترنح، فكان ولا جرم كأنما يستهويهم استهواء، وكان مجموع شعره في البدو حضارة وفي الحضر بداوة. وهذا مروان بن أبي حفصة الشاعر أنشده العتبي لزهير،

فقال: هذا أشعر الناس، ثم أنشده للأعشى فقال: بل هذا أشعر الناس، ثم أنشده لامرئ القيس فكأنما سمع به غناء على الشراب، فقال: امرؤ القيس والله أشعر الناس[١٥] ومروان شاعر في صميم الحضارة، فكيف بالعرب؟ وعندي أن هذا أعظم ما تتميز به شاعرية امرئ القيس؛ لأنه دليل الصنعة التي تبرز على الطبع، والطبع الذي يبلغ في سموه مبلغه بالصنعة؛ وهو الدليل الذي لو سقط من شعره لسقط بشعره لا محالة.

شعر امرئ القيس

لم نعدّ ما عددناه من أسباب شهرة هذا الشاعر وهو قليل مجمل، إلا توطئة لما يأتي من انتقاد كلامه، فإنه عند المتأخرين أُفق لا يُحس إلا بالنظر، ورجل كأنما كانت شهرته قدرًا من القَدَر، يأخذون ذلك بالتسليم، ويقولون: هو أمر كان من قديم، مع أن أدباء الصدر الأول قد تكلموا في خطئه في العروض والنحو والمعاني، وعابوا عليه كثيرًا من شعره وخطَّأوه في وجوه من التصرف، ولا يزال ديوانه يدعو إلى ذلك؛ لأنه هو هو اليوم وقبل اليوم، غير أن أولئك المتأخرين أصبحوا يرون هذا الديوان كدار الآثار: لا يطمع الحي ببعض الإجلال لميت من أمواتها …

كل ما يتناوله امرؤ القيس في شعره من المعاني، لا يتجاوز الغزل، والاستهتار بالنساء، ووصف الصيد والخمر والطيب والخيل والنوق وحمر الوحش والطلول والجبال والبرق والمطر، أما افتخاره في شعره فقليل جيد، والحكمة فيه أقل وأكثر جودة، ومن عيونها قوله:

وإنك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف، ولم يغلبك مثل مغلَّب

وهو يُخرج بعض ذلك مخارج نافرة، فلا يتناسب شعره في الجودة، ولا يطرد في سلامة اللفظ، ولا يتشابه في صحة المعنى، بل يجيء بالشريف والسخيف، والمبتذل والضعيف؛ حتى كأن شعره صُوِّر على اضطراب أخلاقه، ولا يعلل ذلك إلا بتفاوت الأحوال التي يقول فيها، وأنه لم يقصد إلى الشعر قصدًا إلا في القليل الذي أجاده وبرع فيه، أما فيما عدا ذلك فقد منعته الثقة بنفسه أن يتتبع عليها ويقابل بين وجوه الكلام، وذلك بديهي: وإلا فلا معنى لأن يكون مرة نجمًا في السحاب ومرةً حجرًا في التراب؛ والشاعر الذي يسف إنما يسقط في طبقات الهواء لا في طبقات التراب؛ ولذلك كان جيد امرئ القيس أجود شيء، ورديئه أردأ شيء.

وغزل هذا الشاعر ساقط كله؛ لأن استهتاره وتبذُّله معناه أن يتلطف في المعاني بما يستلزمه الإبداع في التعريض والكتابة، والاكتفاء باللمحة الدالة، فبردت حرارته بذلك التصريح، وثقل على القلوب إلا قليلًا مما يفتنَّ فيه، فيجيء حسنُه من صنعة المعنى لا من المعنى نفسه، كقوله:

أغرَّكِ مني أن حبك قاتلي وأنك مهما تأمري القلب يفعل؟

فإنه نزع فيه إلى الحماسة، وهو بيت لو دار في كل أمة لوجد له في شعرها موضعًا، وكذلك قوله:

سموت إليها بعد ما نام أهلها سُمُوَّ حبَاب الماء حالًا على حال

وهذا البيت من مخترعاته، فإنه أول من طرق هذا المعنى وابتكره، وسلم الشعراء إليه. قال صاحب العمدة: وهو أول الناس اختراعًا وأكثرهم توليدًا[١٦] فلا يبغي من شعره إلا الوصف. ومداره على الاستعارة والتشبيه، وسنأخذ بطرف من الكلام فيهما، ثم نفصل به إلى القول في معانيه ومبلغ انطباق ألفاظه عليها، لنتبين موقع نظره في مطارح الكلام، ومذهب فؤاده من أسرار الصناعة، ولا بد لنا هنا من التنبيه على أن الأدباء قد وضعوا أشعارًا من البديع ونحلوها امرأ القيس، يقصدون من ذلك إلى الغض من شأن الذين اخترعوا تلك الأنواع؛ حتى يوهموا أنهم سبقوا إليها، أو إقامة الشاهد على بعض ما يتباغضون فيه من مبتذل الشعر.

ومن النوع الأول ما أورده ابن رشيق[١٧] بعد أن أورد بيتين لأبي نواس فقال: وأول من نطق بهذا المعنى امرؤ القيس:

لِمَنْ طَلَلٌ دارسٌ آيةٌ أضَرَّ به سالفُ الأحرس
تنكَّرُهُ العينُ من جانبٍ ويعرفُهُ شَغَفُ الأنفسِ

وليس فيما دوَّنوه لامرئ القيس، والتوليد فيه بيِّن.

ومن الثاني ما أورده ابن رشيق أيضًا[١٨] عند الكلام على التقطيع والتقسيم من باب الترصيع، كقول المتنبي:

أَقِل أَنِل اقطع احْملْ علِّ سَلْ أَعِدِ
زدْ هشَّ بشَّ تفضَّلْ أُدِّن سُرَّ صِلْ

فإنه قال: وأصل هذا كله من قول امرئ القيس:

أفادَ فجادَ، وشادَ فزادَ وقادَ فذادَ، وعادَ فأفضَلْ

ومهما تهافت امرؤ القيس فلا أراه يسقط على مثل هذا.

استعارته

قالوا: إن الاستعارة إنما هي من اتساعهم في الكلام اقتدارًا ودالة، وليس ضرورة؛ لأن ألفاظ العرب أكثر من معانيهم، وليس ذلك في لغة أحد من الأمم غيرهم، فهم إنما استعاروا مجازًا واتساعًا، ومرجع ذلك إلى شرح المعنى وفضل الإبانة عنه، أو تأكيده والمبالغة فيه، أو الإشارة إليه بالقليل من اللفظ، أو بحسن المعرض الذي يبرز فيه، تبسطًا في اللغة، واسترسالًا في طرق التعبير، فعلى هذا تكاد تكون الاستعارة البيان كله، وليس من غرضنا أن نشرح أقسامها، أو نلم بما قالوه في تحقيقها، وإنما نتكلم عليها في شعر امرئ القيس خاصةً، فهي التي ميزت شعره، وقلدت في جيد الزمان درَّه، وأكسبته شهرة أنه أول من أفلح في شق هذه الصدفة حتى زعم ابن وكيع[١٩] أن أول استعارة وقعت في الكلام قوله:

وليل كموج البحر أرخى سدوله علـيَّ بأنـواع الـهموم ليبتلـي
فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجـازًا ونـاء بكلـكل

وليس يخفى أن العربي الذي يجيء بالاستعارة المتمكنة إنما كان ينظر فيها ويديرها إدارةً، بحيث لا تتفق اتفاقًا ولا تجيء عفوًا إلا في النادر، ولذلك قل الجيد منها في كلامهم حتى نزل القرآن، فتكون من هذه الجهة اختراعًا يدلُّ على قوة غير قوة

الفطرة، وهي في شعر امرئ القيس أكثر منها في المأثور من شعر غيره من الجاهلية، وأصفى ماءً، وأعذب رواءً، وحسب ذلك أن يكون دليلًا على تفضيله، وأشهر الاستعارات التي اتفقت له هذان البيتان.

فاستعار لليل سدولًا يرخيها، وصلبًا يتمطى به، وأعجازًا يردفها وكلكلًا ينوء به. وقد تنازعهما الأدباء، حتى جريا مجرى المثل، وقلما تجد كتابًا في البيان خاليًا منهما، وقد ذكر الآمدي في الموازنة البيت الثاني، ورد عليه ابن سنان وجعله من الاستعارة المتوسطة، وفرق بينهما صاحب المثل السائر، ولكنه على كل حال بمنزلة من الحسن.

وسنخط في البيتين كلمة موجزة: أما الأول فإن تشبيه الليل بموج البحر تشبيه لا أحسن منه، لما يجيش فيه من الظنون ويتقلب من الخواطر، ثم هو مرمى البصر من سريرة الكون، فذلك شَبَّه اتساع البحر وغوره بالنسبة لما يدرك النظر منه، غير أن قوله: أرخى سدوله، ذهب بذلك الحسن كله؛ إذ أفاد أن الغرض من التشبيه غرض محسوس، وهو أدنى أنواعه؛ لأن إرخاء السدول إنما يدل على السكون والحجاب، لا أكثر من ذلك، والكلمة استعارة لظلام الليل، فصارت لفظة الموج لا معنى لها إلا إقامة الوزن، وهي التي كانت عمود الحسن في التشبيه.

وأما البيت الثاني فقد أجمعوا على أنه في وصف طول الليل، ولست أراه كذلك، وإلا فلو تمطى كلب ما زاد في وصف طوله على هذه الألفاظ، وإنما أراد الشاعر ثقل الليل وفتوره، وأنه كلما هم أن ينجلي سقط، كما يفعل الذي يتمطى ثم يردف أعجازه ثم ينوء بكلكله. فالوصف حقيقة ممثلة تصوير ناطق، وعلى ذلك المعنى تكون الاستعارة أبلغ ما يمكن أن يقع في هذا الموضع، وما أخطأ من عده من التشبيه المضمر الأداة؛ لأنه به أليق.

ومن تصرُّفه بالاستعارة في شعره قوله:

وهرٌّ تصيد قلوب الرجال وأفلت منها ابنُ عمرو حُجُر

هرٌّ: هي المعروفة بابنة العامري، وكان يشبب بها امرؤ القيس، وبفاطمة، والرباب، وهند، وفرتنا، ولميس، وسلمى، ومعنى البيت أن أباه أفلت منها، ولو رآها لصادته فيما تصيد. قالوا: واستعارة الصيد مع الهر مضحكة، ولو أن أباه من فارات بيته ما أسف على إفلاته منها هذا الأسف …!

فقد ألزموه الاستعارة كما ترى حتى قارنوا بينها وبين استعارة زهير في قوله:[٢٠]

ليثٌ بِعَثَّرَ يصطاد الرجال إذا ما كذَّب الليث عن أقرانه صدقا

ولكنهم جهلوه فيها هذا الجهل وكيف بمثله من مثله؟ والذي أرى أنهم غفلوا عن المعنى الذي قصد إليه، فإن هرًّا كانت من كلب، وكان امرؤ القيس في كلب وطيء أيام نفاه أبوه، فهو إنما يتنادر عليه، وإذا خرج على هذا المعنى كانت الاستعارة فيه متوسطة، ولكنها تكون سببًا لكناية من أبلغ الكنايات …

ومن استعارته البديعة كلمته التي كأنما قيد بها شهرته في هذه الحياة، وذلك قوله في الجواد: قيد الأوابد. ولقد حاول المولِّدون أن يجيئوا بمثلها، غير أنها بقيت مفردة، وذلك كقول ابن الرومي في الحديث: شرك العقول وعقلة المستوفز، وقول المتنبي في صفة الجواد: أجل الظليم وربقة السرحان، ورأيت لدريد بن الصمة كلمة تكاد تساويها في الحسن، وهي في قوله:

يا فارسًا، ما أبو أوْفى إذا اشتغلت كلتا اليدين كرورًا غير وقَّاف
(عُبْرُ الفوارس) معروف بشكته كافٍ إذا لم يكن من كربةٍ كافِ

فالكلمة هي (عُبْرُ الفوارس) يريد بها أن الفوارس ترى منه ما يُبكي أعينهم ويستعبرها.[٢١]

وهذا وأمثاله مما يدل على فطنة الشاعر وحدَّة فؤاده، وأن له من قوة الفطرة ما يقوم مقام الصنعة، وتلك صفات يدل عليها كثير من كلامه، غير أن امرأ القيس إنما كان مبتدئًا فيما ابتدع، ولذلك لا يمكن أن يؤخذ البديع كله من شعره، وليس هذا بضائره ونحن الآن في الكلام عن استعارته، ومن الاستعارة نوع اتفق علماء البديع أنها المقدمة في هذا الباب وليس فوق رتبتها في البلاغة رتبة، وهي الاستعارة المرشحة، كقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ …﴾[٢٢] فإن الاستعارة الأولى وهي لفظ الشراء، رشحت الثانية وهي لفظ الربح والتجارة، وهذا النوع لا تصيب منه في شعر امرئ القيس مثالًا واحدًا، والذي بقي من استعارته إنما هو في سبيل ما قدمناه، وهو قليل تدل جملته على قلب يعي وفؤاد يصنع، وشعر في زمنه شاعر. ولا نستطيع أن نوازن بين مذاهبه في الاستعارة ومذاهب المولدين، فلو سمع هذا الشاعر القرآن وكان أمويًّا أو عباسيًّا، لكان ابن المعتز ثاني اثنين في الاستعارة والتشبيه.

وقد أخرجوا من كلامه كلمات جرت أمثالًا، ورواها الميداني والضبي وغيرهما.[٢٣]

تشبيهاته

قد قلنا في استعارات امرئ القيس، وترسمنا آثاره في ذلك المذهب بما يؤدي إلى حكم في الصناعة، ويكشف عن غاية من غايات الرجل، ونحن وإن لم نكن أفضنا في ذلك، إلا أن هذا المنزع قريب، ربما أغنى في بعضه المثال الواحد؛ إذ كان امرؤ القيس مبتدئًا في شيء ومبتدعًا في شيء، وجهده في جميع ذلك أن تُحصى له الكلمات المعدودة، وهي لا تحتمل الإفاضة على تقسيم الكلام إلى فصول وتمييز بعضها من بعض. ثم هو إنما كان شاعرًا من شعراء الفطرة، يَعرض للسانه القول كما يعرض لعينه الوحش؛ فينطلق كلاهما على نفَس واحد يصنع القليل ولا ينقح الجملة؛ فكان ما يجيء في كلامه من بدائع الصنعة هو الدليل على فضل قوته التي تغمر فؤاده وتصرفه إلى مشايعة طبيعة اللغة في النمو، ولو صرفت تلك القوة إلى الصنعة التي يعرق فيها الكلام من كثرة تقليبه، لكان للكلام في شعره مذهب آخر، وأنت قد تجد للمتنبي بيتًا واحدًا لو جُمِع اختلاف العلماء فيه لزاد على اختلافهم في جميع شعر امرئ القيس.

أما تشبيهاته فهي بجملتها ترمي إلى غرض واحد، وهو تصوير الحقيقة تصويرًا غير ملون، وله فيها طرائق بديعة هو أول من ابتكرها، كتشبيه الإضافة في قوله:

له أَيطلا ظَبْيٍ وساقا نعامة وإرخاء سرحان وتقريب تَتْفِل

فقد جاء به — كما ترى — حتى جعله تحقيقًا، وفيه أيضًا تشبيهه أربعة بأربعة، وقد زعم الفرزدق أنه أكمل بيت قالته العرب، أو قال: أجمع بيت[٢٤] وهو أول من فتح هذا الباب.[٢٥]

وقد يجيء بعضها مخدجًا[٢٦] غير تام الأجزاء، وتبلغ ببعضها المبالغة إلى الاعتساف والشطط، كقوله في صفة الفرس:

وأركب في الرَّوع خيفانة كسا وجهها سعفٌ مُنْتَشِر

الخيفانة: الجرادة التي انسلخت من لونها الأول الأسود أو الأصفر وصارت إلى الحمرة، فشبَّه فرسه بها لخفتها، وشبه ناصيتها بسعف النخلة، قالوا: وهذا الوصف غير مصيب؛ لأن الشعر إذا غطى العين كان عيبًا، وهو الغَمم، والحسن منها أن تكون الناصية كأنها حبشة، أي قصيرة مجتمعة[٢٧] وفي هذه القصيدة وهو مما نحن فيه:

لها متنتان خظاتا كما أكبَّ على ساعديه النَّمِر

يريد أن لها متنين كساعدي النمر البارك، في الغلظ واكتناز اللحم، والمستحب عندهم تعريق المتن وتعريق الوجه، كما قال طفيل وهو أحد نُعَّات الخيل المجيدين:

معرقة الألحى تلوح متونُها

أي معرقة الوجوه ويكاد يستبين العصب من قلة اللحم، وكذلك المتون، وقد وصف امرؤ القيس الخيل في هذه القصيدة وصف سمسار يزين فرسًا في السوق لا وصف فارس، ولولا تصعلكه لجاد من ذلك بما لا يلحق له الشعراء غبارًا، وهذا شيء تعرفه بمقارنة معانيه في الخيل بمعاني غيره من فرسانها. ومن قبل ما نحن فيه قوله في الغزل:

وإذ هي تمشي كمشي النزيـ ـف يَصْرَعُهُ بالكثيب البَهَرْ

يصف تفَتُّر الحسناء في مشيتها بمشية المنزوف دمه أو عقله بالسكر إذا صعد كثيبًا فانقطع نفسه من الإعياء والكلال، فانظر هذه المبالغة الباردة وهذا التشبيه القبيح، وما عسى أن تكون تلك الحسناء إلا في الدرجة الثالثة من السل …

ولهذا الشاعر طريقة في التشبيه جاء منها بأبيات معدودة، وهي تناسب التتبيع الذي سنتكلم عنه؛ لأنه كان أول من اخترعه، وهذه الطريقة هي أن يريد من الوصف ما يلزم من حقيقته الممثلة في الذهن، وقد اتفق له من ذلك ما يُعدُّ غاية في الحسن، كقوله في وصف سالفة الفرس:

وسالفة كسَحُوق الليا ن أضرَم فيها الغويُّ السُّعُرْ

فلقد أراد من وصف عنق الفرس بأنها شجرة متوقدة من شجر الكندر ما يستتبعه هذا الوصف من لون النار، وهي الشُّقْرة، فكأنه أراد أن يقول إن فرسه شقراء، فاحتال لذلك بهذا التشبيه البديع، وقد أخذ هذا التشبيه أوس بن حجر فقال:

حتى يلفَّ نخيلهم وبيوتهم　　لهبٌ كناصية الحصان الأشقر

وبيته معدود عند أهل البديع من عجيب ما وقع في باب التتبيع،[٢٨] لأنهم يقولون: إنه أراد الحرب التي هي المقصود بالصفة.

وبمقدار ما أحسن امرؤ القيس في هذا القول أساء في قوله:

كأن على لَبَّاتها جَمْرَ مُصْطَلٍ　　أصاب غضًا جَزلًا وكُفَّ بأجزال
وهَبَّتْ له ريح بمختلف الصُّوى　　صبًّا وشمالٌ في منازل قُفَّال

وهل على طريقته تلك؛ فإنه أراد أن يصف توقُّد الحلي وصفاءه على لبات تلك الحسناء، فخلص إلى ذلك من طريق الشياطين والزبانية … إذ لم يكفه أن جعله على صدرها كالجمر، بل خصه بجمر المصطلى؛ لأنه لا يزال يُذكيه ويقلبه فهو يتوقد ويظهر جمرة جمرة، ثم كأنه استقل هذا كله على صدرها فجعل الجمر من الغضا، وهو شجر معروف يقال: إن جمره أبقى الجمر وأحسنه، ثم جعل لهذا الجمر كفافًا من أصول الشجر، وهي الأجزال، حتى تزيد في وهجه وتوقده، ثم لما كان قدُّ تلك الحسناء لا بد أن يكون ممشوقًا فقد جعل هذه النار من صدرها على مثل اليفاع من الأرض، لتكون الريح أشد تمكنًا منها، ثم جعلها في منازل راجعين من الأسفار فهي توقد لهم ويحتفل فيها على ما هو معروف من عوائدهم. فليت شعري هل يبقى بعد هذا الحريق من لبات الحسناء ما يُناط به الحلي، فضلًا عما يظهر حُسْنُهُ وتَوقدُّهُ …؟

وأعجب شيء في أوصاف امرئ القيس وهو ابن ملك، أنه يصف الجميلة بحسن الغذاء، ويصف سنا البرق بمصابيح راهب أهان في ذُبالها السَّليط، وهو الزيت، فلم يعزه لكثرته عنده … وهكذا مما لا يؤخذ منه إلا أنه كان صعلوكًا يصف للصعاليك، وهو دليل أيضًا على ما قدمناه من أن شعره صورة غير مرتبة من حياته.

ومن بدائع التشبيه التي اتفقت له قوله:

سموتُ إليها بعد ما نام أهلها سُمو حباب الماء حالًا على حالِ

المراد بحباب الماء: إما طرائقه، أو فقاقيعه، فمن ذهب إن الحباب الطرائق فإنما أراد: أني جئت أتدفَّع إليها كما يتدفع الماء شيئًا بعد شيء حتى صرت إلى ما أريد، ومن ذهب إلى أن الحباب الفقاقيع، فإنه أراد خفة الوطء وإخفاء الحركة، وكلا المعنيين غاية في تصوير تلك الحال، مع اللطف والرقة وبراعة التشبيه، وقد تقدم أنه من مخترعاته التي سلمها له الشعراء، وهو أحد المعاني التي تلمُّ بها خواطرهم فتختلس منه ما تختلس الألحاظ، وكثيرون قد ألموا به، ولكن الغاية في ذلك قول ابن شهيد الأندلسي:[٢٩]

ولما تملأ من سُكْرِهِ ونام ونامت عيون الحَرس
دنوت إليه على قربِه دنُوَّ رفيق درى ما التمس
أدِبَّ إليه دبيب الكرى وأسمو إليه سُمُوَّ النَّفَسْ

ومن هذه القصيدة قوله يذكر العقاب حين شبَّه فرسه بها، وهو من المخترعات أيضًا في معناه، وأسلوبه طريقة من طرائقه المبتكرة:

كأن قلوب الطير رطبًا ويابسًا لدى وكرها العُنَّابُ والحشف البالي

العُنَّابُ ثمر أحمر، والحشف ما يبس من الثمر ولم يكن له طعم ولا نوى. وقد أجمع الرواة على أن هذا أحسن بيت جاء في تشبيه شيئين بشيئين في حالتين مختلفتين. وتقديره: كأن قلوب الطير رطبًا العناب ويابسًا الحشف البالي، فشبه الطريء من القلوب بالعناب، والعتيق بالحشف، وخص قلوب الطير؛ لأن فرخ العُقاب فيما يقال يأكل لحم الطائر ما خلا قلبه، فلذلك كثرت قلوب الطير عندها، وقيل غير ذلك. والتشبيه كما ترى ليس بشيء، غير أن الطريقة التي جاء بها هي دليل من الأدلة على فضل صاحبها، ولم يُحفَظ قبل امرئ القيس بيت على هذا النمط، فهو أول من جاء بذلك من الشعراء، وقد رووا أن بشار بن برد قال: ما قرَّ بي قرار بعد أن سمعت بيت امرئ القيس حتى صنعت:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا، ليلٌ تهاوى كواكبه

فقد اتبع الطريقة نفسها؛ وقالوا في بيته: إنه لم يقع بعد بيت امرئ القيس في الترتيب أحسن منه، ولكن البيت الأول يَفْضُله بأنه أورد التشبيه في حالتين مختلفتين؛ إذ قلوب الطير واحدة، ولكن التشبيه إنما وقع على حالتيها من الطراءة واليبوسة، وقد غفل عن ذلك بشار، وبالجملة فإن امرأ القيس وسط بين شعراء التشبيه، وإن كان قد أكثر منه واحتذى فيه فعل أبي دؤاد والمهلهل وغيرهما، إلا أن له طرقًا في هذا التشبيه هي من مبتكراته، وهي كل ما في يدنا من الأدلة على براعته وحسن تصرفه ورجحانه على غيره من متميزي الشعراء. وقد عدل المولدون عن تشبيهات الجاهلية إلى ما هو أليق بأزمانهم وأدنى شبهًا منها، ولكنهم مع ذلك لا يزال في مجموع أشعارهم موضع لبعض أبيات امرئ القيس، كقوله: سموت إليها ... وغيره، على أن أكثر شعراء الجاهلية قد خرجوا من هذا الباب، ولم يرضَ المولدون أن يقفوا عليه ولا وقفة الحُجَّاب!

تتمة الانتقاد

بقي علينا — بعد أن تكلمنا في استعارات امرئ القيس وتشبيهاته — أن نأتي على بقية هذا الكلام مما يصف معانيه وألفاظه وما يقع عليه الناقد في سائر كلامه ويصيبه من حسناته المتفرقة في كتب البيان، وقد أشرنا إلى بعض مبتكراته تلك ونحن مستوفون سائرها هنا: قالوا: إنه أول من فتح باب الاحتراس، وذلك في نحو قوله:

إذا ركبوا الخيل واستلأموا تحرَّقت الأرض واليوم قرَّ[٣٠]

أي واليوم بارد، فاحترس وكان الاحتراس بالقافية التي هي تمام البيت وهذا من أبدع ما يجيء؛ لأنه يزيد في تمكين القافية ويكسبها عزة لا تكون لكلمة غيرها في البيت بجملته.

وقد رأينا هذا الشاعر يبالغ في استقصاء جزئيات المعاني مبالغة هي طبع فيه، وهي عند التي هيأت له مثل هذا الاحتراس، وقد مر من ذلك ما وصف توقُّد الحلي، ومثله في كلامه كثير وسيمرُّ بكل شيء من بديعه، وكذلك قالوا في التتبيع، وهو من أنواع الإشارة، وذلك أن يريد الشاعر ذكر الشيء فيتجاوزه ويذكر ما يتبعه في الصفة وينوب

عنه في الدلالة عليه. قال ابن رشيق: وأول من أشار إلى شيء من ذلك امرؤ القيس يصف امرأة:[31]

ويُضحى فَتِيتُ المسكِ فوق فراشها نَئُوم الضحى لم تنتطق عن تفَضُّلِ

فقوله: (يضحى فتيت المسك) تتبيع، وقوله: (نَئُوم الضحى) تتبيع ثانٍ، وقوله: (لم تنتطق عن تفضل) تتبيع ثالث، وإنما أراد أن يصفها بالترف والنَّعمة وقلة الامتهان في الخدمة، وأنها شريفة مكفية المؤنة، فجاءها بما يتبع الصفة ويدل عليها أفضل دلالة.

وقال ابن رشيق أيضًا في باب التمثيل الذي هو من ضروب الاستعارة — وذلك أن تمثل شيئًا بشيء فيه إشارة إليه — إن امرأ القيس أول من ابتكره، ولم يأتِ أملح من قوله فيه:

وما ذرفتْ عيناك إلا لتضربي بسهميك في أعشار قلب مُقتَّل

فمثَّل عينيها بسهمي الميسر، يعني المُعَلَّى وله سبعة أنصباء، والرقيب وله ثلاثة أنصاء، فصار جميع أعشار قلبه للسهمين اللذين مثل بهما عينيها، ومثَّل قلبه بأعشار الجزور، فتمت له الاستعارة والتمثيل.[32]

وقال في الإيغال: وهو ضرب من المبالغة إلا أنه في القوافي خاصة لا يَعدوها: وليس بين الناس اختلاف أن امرأ القيس أول من ابتكر هذا المعنى بقوله يصف الفرس:

إذا ما جرى شأوَيْن وابْتَلَّ عِطفُهُ تقولُ هزيزُ الريح مرَّت بأثأبِ

فبالغ في صفته وجعله على هذه الصفة بعد أن يجري شأوين ويبتلُّ عطفه بالعرق، ثم زاد إيغالًا في صفته بذكر الأثأب، وهو شجر للريح في أضعاف أغصانه حفيف عظيم وشدة صوت، ومثل ذلك قوله:

كأن عيون الطير حول خبائنا وأرحُلِنا الجزعُ الذي لم يُثَقَّبِ

فقوله: (لم يثقب) إيغال في التشبيه، واتبعه زهير فقال:

كأن فتات العهن في كل منزل نزلن به، حَبُّ الفنا لم يُحطَّم

فأوغل في التشبيه إيغالًا، بتشبيهه ما يتناثر من فتات الأرجوان بحب الفنا الذي لم يُحطَّم؛ لأنه أحمر الظاهر أبيض الباطن، فإذا لم يحطم لم يظهر فيه بياض البتة وكان خالص الحمرة، وتبعهما الأعشى فقال يصف امرأة:

غَـرَّاءُ فـرعـاءُ مـصـقـولٌ عـوارِضـهـا تمشي الهوينا كما يمشي الوحي الوجلُ

فأوغل بقوله: (الوجِل) بعد أن قال: الوحي، وبهذا تستدل على أن الشعراء كانوا يهتدون في الصنعة بامرئ القيس، فكان شعره لهم أشبه بكتب البلاغة للمتأخرين، وما من نوع من الأنواع التي سلفت إلا وقد اتبعوه فيها وانسحبوا على أثره. وعلى تقليب المولدين لهذه الأنواع حتى لم يغادروا فيها مطمعًا — بقي من شعر هذا الرجل ما هو في بعض نسيج وحده، والمثال الأول في الدلالة على حده.

أما ما جاء في شعره من أنواع البديع غير ما ذكرناه، مما مثلوا له في كتبهم بشيء من قوله: كالالتفات، والتقسيم، والمقابلة، والغلوِّ، ونفي الشيء بإيجابه في قوله:

على لا حبٍ لا يُهتَدَى بمناره

أي لا منار له فيهتدى به، والاتساع، والاشتراك، والإشارة، والإرداف، والترصيع، وجمع المؤتلف والمختلف، وغيرها — فلم ينص أحد من علماء البديع على أنه أول من جاء به، على أنهم في أكثر ذلك لا يستدلون بشعر شاعر معروف قبله أو معاصر له، فإن لم يكن وقع من ذلك شيء فهو مبتكره ولكن شعره على الجملة في ذلك مثال حسن، وبعضه لا يعدلون به شيئًا، كما ذكروا في التكرار الذي لا يكون إلا على جهة التشوق والاستعذاب إذا كان في تغزل أو نسيب — أنه لم يتخلص أحد تَخَلُّصَ امرئ القيس، ولا سَلّم سلامه في هذا الباب إذ يقول:

ديارٌ لسلمى عافيات بذي الخال ألـحَّ عـلـيـهـا كلُّ أسـحَـمَ هَـطَّـالِ

وتحسبُ سلمى لا تزال كعهدنا بوادي الخُزامى أو على رأس عالِ
وتحسبُ سلمى لا تزال ترى طَلًا من الوحْش أو بَيْضًا بَمْيثاء مِحْلالِ
ليالي سُلَيمى إذ تريك مُنَضدًا وجيدًا كجيد الرِّئم ليس بَمعطالَ

ولكن بعض تلك الأنواع اتَّبع فيها امرؤ القيس غيرَه، كما احتذى في الغلو على قول مهلهل:

فلولا الريح أسمع من بحجر صليل البيض تقرع بالذكور

وهو الذي قالوا فيه إنه أكذب بيت قالته العرب؛ لأن بين حجر — وهي قصبة اليمامة — وبين مكان الوقعة عشرة أيام، فقال امرؤ القيس يصف النار:

تَنَوَرْتُها من أذرعات وأهلها بيثرب أدنى دارِها نَظَرٌ عالِ

وفاضلوا بين البيتين فقالوا: إن مهلهلًا أشد غلوًّا من امرئ القيس؛ لأن حاسة البصر أقوى من حاسة السمع وأشد إدراكًا، ثم اتبع امرؤ القيس النابغة في قوله يصف السيوف:

تقد السلوقيّ المضاعف نسجُه وتوقدن بالصفَّاح نار الحباحب

قالوا: وهو دون بيت امرئ القيس في تنوِّر صاحبه إفراطًا، ودون بيت النابغة قول النمر بن تولب في صفة السيف أيضًا:

تظل تحفر عنه إن ضربت به بعد الذراعين والساقين والهادي

إذ ليس خارجًا عن طباع السيف أن يقطع الشيء العظيم ثم يغوص بعد ذلك في الأرض؛ فالغلو فيه ضعيف، وقد كدنا نخرج عما نحن بصدد منه، والآن فقد تبينت أن هذا الشاعر بصير بصنعة الكلام، وأن فضله إنما هو في طريق إيراد المعنى مما يلتحق بتأليف اللفظ وتصريف الأسلوب، وانظر إلى قوله:

كأني لم أركب جوادًا لِلذة ولم أتَبطن كاعبًا ذات خَلخَالِ
ولم أسْبَأ الزِّق الرَّوي ولم أَقُلْ لخيليَ كُرِّي كرَّةً بعد إجفالِ

فقد اعتُرضَ في هذين البيتين وقيل: خالف وأفسد ولو جَمَع الشيء وشكله، فذكر الجواد والكر في بيت، والنساء والخمر في بيت، لكان أصوب، وإنما غفلوا عما قصد إليه من هذا الترتيب، وذلك أن اللذة التي ذكرها في البيت الأول إنما هي الصيد، ثم حكى عن شبابه وغِشْيَانِهِ النساء، فجمع المعنيين للتضايف بينهما، ولو نظم البيت كما قالوا لنقص فائدة تدل عندهم على الملك والسلطان، وكذلك لو فعل في البيت الثاني لكان ذكرُه اللذة زائدًا في المعنى؛ لأن الزق لا يُسبأ إلا للذة، وإنما وصف نفسه بالفتوة والشجاعة بعد أن وصفها بالتملُّك والرفاهية. وقد أَتبعه المتنبي في قوله:

وقفتَ وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمةً ووجهُك وضاحٌ وثغرك باسم

وذكر الواحدي في شرحهما اعتراض سيف الدولة عليه وعلى امرئ القيس وتخلُّص المتنبي لنفسه وله، غير أن ترتيب امرئ القيس أبدع وفيه من الفائدة ما ليس في بيتيِّ أبي الطيب.

بقي أن نذكر بعض المآخذ التي أصبناها في شعر هذا الشاعر، فمن ذلك أنه له استعانة ضعيفة بالحروف والكلمات، كقوله:

ألا رُبَّ يومٍ لك منهن صالح

إن له تكرارًا قبيحًا في الألفاظ والمعاني يجيء بها على وجه واحد في مواضع مختلفة من غير أن يتصرف في ذلك بما يخفي قبح هذا التكرار وينفي عنه الظنة.

ومنها دخوله في وجوه المناقضة والإحالة في بعض الكلام، وذلك مما يدل على أنه يرسله إرسالًا كما اتفق، لا يبتغي به إلا لذة المنطق، وإلا مواتاة ما في نفسه من الميل إلى القول؛ وبهذا كان ختام قصائده مقتضبًا، وقلما قطع الشعر على كلمة بديعة إلا في القليل كختام قصيدته السينية:

ألا إن بعد العُدْمِ للمرء قِنْوَةً   وبعد المشيب طولَ عُمْر ومَلْبسا

فكأن الشعر يُقتَرح عليه اقتراحًا فتى فرغ من المعنى الذي يريده سكت دون أن ينظر إلى موضع السكوت وأن الإصابة فيه كأحسن الكلام.

ومنها استعمال الكلام المؤنث في شعره، كقوله لك الوَيلات إنك مُرجلي، ونحوه، دون أن يوطئ لذلك بما يحسِّن التضمين ويخرج الكلمة المؤنثة مخرجًا لا يكفي فيه أن يكون حلقيًّا فقط …

أما ما وقع له غير ذلك من اضطراب بعض القوافي وثقل الألفاظ مما يكد لسان الناطق المتحفظ، فذلك متجاوَز عنه بعذر البداوة، والغريب عندنا مألوف عند أهله.

المنازعة بين امرئ القيس وعلقمة

لما نزل امرؤ القيس في طيء تزوج امرأة منهم تسمى أم جندب، وكان مُفَرَّكًا وكانت تكرهه، فنزل به علقمة بن عبدة فتذاكر الشعر وادَّعاه كلٌّ واحد منهما على صاحبه، فقال علقمة: فقل شعرًا تمدح فيه فرسك والصيد، وأقول في مثل ذلك، وهذا الحكم بيني وبينك — يعني تلك المرأة — فبدأ امرؤ القيس يقول:

خليليَّ مرَّا بي على أمِّ جندب   نُقَضِّ لبُاناتِ الفؤاد المعذب

فنعت فرسه والصيد حتى فرغ، وقال علقمة:

ذهبتِ من الهجران في غير مَذْهَبٍ   ولم يكُ حقًّا كل هذا التجنُّبِ

فنعت فرسه والصيد حتى فرغ، وكان في قول امرئ القيس:

فللساق أُلهوبٌ وللسَّوطِ درَّة   وللزجر منه وقعُ أهوجَ مِنْعَبِ

وفي قول علقمة:

فأقبل يهوي ثانيًا من عنانه　　يَمُرُّ كمرِّ الرائحِ المُتَحلِّبِ

فتحاكما إليها، فقالت: هو أشعر منك؛ لأنك ضربت فرسك بسوطك وامتريته بساقك وزجرته بصوتك وأَدرك فرس علقمة ثانيًا من عنان.[٣٣]

وفي رواية أخرى أنهما احتكما إلى أم جندب لتحكم بينهما، فقالت: قولا شعرًا تصفان فيه الخيل على رَويٍّ واحد وقافية واحدة، فأنشداها جميعًا، فلما حكمت لعلقمة قال امرئ القيس: ما هو بأشعر مني ولكنك له وامقة،[٣٤] فطلقها فخلفه عليها علقمة. (ابن قتيبة).

وما رأيت أحدًا من أهل النقد وازن بين القصيدتين، بل كلهم متبعون كلمة هذه المرأة، وبعضهم لا يعرف ما كان بينها وبين امرئ القيس فيقول إنهما تحاكما إليها في المفاضلة بينهما لأنها من ذوات العقل والمعرفة. مع أن علقمة معدود من الشعراء المغلَّبين وامرؤ القيس يقول في قصيدته:

وإنك لم يفخر عليك كفاخر　　ضعيف، ولم يغلبك مثل مُغَلبِ

وما أرى أم جندب إلا أرادت ما تريد الفارك من بعلها، فقرعت أنفه على حَمِية ونخوة وهي تعلم أنها لا بد مُسرَّحة في زمام هذه الكلمة، وإلا فالبيت الذي توافيا على معناه ليس بموضع تفضيل؛ لأن في قصيدة امرئ القيس ما هو أبلغ في هذه الصنعة من بيت علقمة، وهو قوله:

إذا ما جرى شأوَيْن وابْتَلَّ عِطْفُهُ　　تقولُ هزيزُ الريحِ مرَّت بأثأبِ

وقد مر شرحُه وبيان وجه البلاغة فيه، ولكن من التمس عيبًا وجده، ومن تدبر صنعةَ امرئ القيس للخيل في شعره وجد السوط لا يفارقه، فلعلها كانت عادته.

وقصيدة علقمة بجملتها ليست بشيء؛ لأن كل ما فيها من الألفاظ البارعة والمعاني الحسنة مأخوذة من قصيدة امرئ القيس، حتى ليأخذ البيت برمته والشطر بحاله، ومع ذلك فقد أبرَّ عليه امرؤ القيس، في الصنعة، وما أدري كيف هذا، فلولا أن الرواة

مجمعون على أن قصيدة علقمة مما صح له لقلت إنها مصنوعة، ثم إن الذين رووا خبر هذه المنازعة منهم، وهم عمرو بن العلاء؛ وأبو عبيدة، والأصمعي، لم يزيدوا شيئًا على ما سبق، وكان طبيعيًّا أن يتكلم امرؤ القيس في ذلك كلمة؛ لأن علقمة إنما رد إليه بضاعته، ولن يبلغ التوارد بين الشاعرين هذا المبلغ وأحدهما يسمع من الآخر، إلا أن يكون الاثنان قد اتفقا في الأخذ عن ثالث، وهو أغرب؛ وإن صح خبر هذه المنازعة فيكون ذلك هو السبب في تعفف امرئ القيس على الشعراء وإدلاله بشعره وذهابه إلى الظنة فيه؛ لأنه رأى من استخذاء علقمة واستجدائه ما ينفخ مثله إلى حد الورم، وما زال على ضلالة حتى لقي التوءم البشكري فقال له: إن كنت شاعرًا كما تقول فملِّط لي أنصاف ما أقول فأجزها، قال: نعم، فقال امرؤ القيس:

أحارِ ترى بريقًا هَبَّ وهْنًا

فقال التوءم:

كنار مجوس تستعر استعارًا

وهي أبيات ستجيء في بحث الصناعات، فلما رآه امرؤ القيس قد ماتنه، ولم يكن في ذلك العصر من يطاوله، آلى أن لا ينازع الشعر أحدًا آخر الدهر. كذا رواه أبو عبيدة عن أبي عمرو بن العلاء،[٣٥] وعلى ذلك يكون علقمة إنما غلب امرأ القيس بكلمة امرأته لا بقصيدته.

وقد رأينا أن نروي القصيدتين هنا ليكون وجه المقابلة فيهما بيِّنًا، ولا بد أن ننبه على أن أكثر ما في قصيدة امرئ القيس مفرق بألفاظه ومعانيه في قصائد أخرى له، ومنها أبيات لم يغير منها إلا القافية، وذلك بعض ما أخذناه على شعره.[٣٦]

وقد رأينا أن نقف من الكلام على امرئ القيس عند هذا الحد، ففي بعض الكفاية كفاية؛ وما يكون دون غاية من الغايات فربما كان في نفسه غاية.

هوامش

(١) الأغاني: ٨ / ٧٥.
(٢) الأغاني: ٨ / ٧٣.
(٣) قلت: الغارب من البعير: ما بين السنام والعنق.
(٤) قلت: منجرد: اسم فرس امرئ القيس، وانجر الفرس: لا شعر عليه كما في القاموس.
(٥) الأغاني: ٨ / ٦٧.
(٦) قلت: الإسحل: شجر يُستاك بأعواده يشبه الأثل، ينبت في السهول في منابت الأراك.
(٧) قلت: الحديث هو «امرؤ القيس صاحب لواء الشعراء إلى النار» رواه أحمد ٢/ ٢٢٨.
(٨) العمدة: ١ / ٦٧.
(٩) شرح ديوان امرئ القيس: ص١٧٥.
(١٠) ديوان امرئ القيس: ص١١٩.
(١١) قلت: السُّنيق: البيت المجصص، والكوكب الأبيض (جمعها) سنابيق.
(١٢) العمدة: ٢ / ٦٠.
(١٣) العمدة: ١ / ٦١.
(١٤) الطبقات: ص٣٨.
(١٥) الطبقات: ص٩.
(١٦) العمدة: ١ / ١٧٥.
(١٧) العمدة: ٢ / ٥٥.
(١٨) العمدة: ٢ / ٢٥.
(١٩) العمدة: ١ / ١٨٦.
(٢٠) العمدة: ١ / ١٨٣.
(٢١) سرح العيون: ص٢٥٥.
(٢٢) سورة البقرة: ١٦.
(٢٣) شعر النصرانية: ١ / ٦٨.
(٢٤) العمدة: ٢ / ٢١.

(٢٥) العمدة: ١/ ١٩٩.

(٢٦) قلت: مخدجًا: ناقصًا.

(٢٧) ديوان امرئ القيس: ص١٣.

(٢٨) العمدة: ١/ ٢١٧.

(٢٩) نفح الطيب: ٢/ ١٤٣.

(٣٠) ديوانه: ص٦.

(٣١) العمدة: ١/ ٢١٥.

(٣٢) كانت الجزور تقسم على عشرة أعشار، والمراد أنها ضربت على قلبه بالسهمين فاختارته كما تختار بهما أعشار الجزور.

(٣٣) ديوان امرئ القيس: ص٧٧.

(٣٤) قلت: ومق: أحب، وتومق تودد كما في القاموس.

(٣٥) العمدة: ١/ ١٣٥.

(٣٦) الوسيلة الأدبية: ص٥٠٤، شعراء النصرانية: ١/ ٢٣، وديوان امرئ القيس.